وقلت لصاحب الحلوى لأي شيء هذا اللوزينج رطلين فهو أجرى في
الحلوق وأمرى في العروق ولكن إلى العمر نوى النشور رقيق
الجلد كثيف الحشو لؤلؤي الدهن كوكبي اللون يذوب كالصمغ قبل المضغ
موزونة وقعد وقعدت وجرد وجردت حتى استوفيناه ثم قلت يا
ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بثلج ليقمع هذه الصارة ويفثأ هذه اللقم الحارة
اجلس يا أبا زيد حتى آتيك بسقاء يأتيك بشربة ماء وخرجت وجلست بحيث
أراه ولا يراني أنظر ما يصنع به فلما أبطأت عليه قام السوادي إلى حماره
واعتلق الشواء بإزاره وقال أين ثمن ما أكلت فقال أكلته ضيفا فقال
هاك وهاك متى دعوناك زن يا أخا القحبة عشرين وإلا أكلت ملكمة
فلطما وثنى عليه فجعل السوادي يبكي ويمسح دمعه بأردانه ويحل عقده بأسنانه
ويقول كم قلت لذلك القريد أنا أبو عبيد وهو يقول أنت أبو زيد
وأنشأ يقول

اعمل لرزقك كل آلة • لا تقعدن بكل حاله
وانهض بكل عظيمة • فالمرء يعجز لا محاله

ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سببا لهبوب ريح الهمذاني
وعلو أمره وقرب نجحه وبعد صيته إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن
أحدا من الأدباء والكتاب والشعراء ينبري لمباراته ويجترئ على مجاراته
فلما تصدى الهمذاني لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما
مكاتبات ومباهاتات ومناظرات ومناضلات وأفضى الفضل
العنان ووقع النبع بالنبع وغلا هذا قوم وذاك آخرون وجرى بين الرجلين
بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاجين والقرنين المتصاولين طار ذكر
الهمذاني في الآفاق وارتفع ذكره عند الملوك والرؤساء وظهرت أمارات
الإقبال على أموره وأدر الله له أخلاف الرزق وأركبه أكتاف
العز وأجاب الخوارزمي داعي ربه فخلا الجو للهمذاني وتصرفت به أحوال
جميلة وأسفار كثيرة ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة
بلدة إلا دخلها وجنى ثمرتها واستفاد خيرها وميرها ولا
ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء وسرى منه
في صنوف فاز بغرائب النعم وحصل على غرائب القسم وألقى عصاه بهراة
واتخذها دار قراره ومجمع أسبابه ولما بارك الله للوصلة بينه
الأصل والفضل والطهارة والستر والقدم والحديث حتى وقف

كلمه وخار الله له في مصاهرة أبي علي الحسين بن محمد الخشنامي وهو
الفاضل الكريم الأصيل الذكي لا يرد إذا اختار الأريب أحيانا فانتظمت
أحواله إلى الفضل بصهره وعرف العزة في غيبته والقوة في ظهره
واقتنى بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة وابتاع معيشة صالحة و
مروءة ظاهرة وعاش عيشة راضية وحين بلغ أشده وأربى على
أربعين سنة ناداه الله فلباه وفارق دنياه في سنة ثمان وتسعين و
ثلاثمائة في حادي عشر جمادى الآخرة منها وقيل إنه سم وقيل عرض
له داء السكتة فعجل دفنه وأنه أفاق في قبره وسمع صوته بالليل
وأنه نبش فوجد وقد قبض على لحيته من هول القبر وقد مات فعاشت نوادب
الأدب وانثلم حد القلم وبكت عين الفضل فقدها وجهه الدهر عز بها وبكاه
الأفاضل مع الفضائل ورثاه الأكارم مع المكارم على أنه ما مات من لم يمت ذكره
ولقد خلد من بقي على الأيام بنظمه ونثره والله يتولاه بعفوه وغفرانه
ويحسبه بروحه وريحانه وأنا كاتب في ملح طرف ملحه ولفظ غرره
ما هو غذاء القلب ونسيم العيش وقوت النفس ومادة الأنس **فصل**
من رقعة إلى الخوارزمي وهو أول ما كاتبه به أنا لقرب دار الأستاذ
كالطرب النشوان ماله الحمو من الارتياح للقائه كما انتفض العصفور
بلله القطر ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبارد العذب
ومن الابتهاج لمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب **فصل** ورد
للخوارزمي كتاب يعلق فيه على حبل الجود ويعلى على جمر الصحو ويناوه من
جار الخجل ويذكر أنا خاصمته قد علمت الفلج أينا كان فقلت الناس أعلم
والأخبار المتظاهرة أعدل والآثار الشاهدة أصدق وحلبة السباق
أشهد والعود أن نشط أحمد ومتى استزاد زدنا وإن عادت
العقرب عدنا ولعندي إذا انتشاكل ما شئنا ولن نعدم إذا أراد
الطير أمر احه ومن نقابص صماحه وما ثبت أظنه ينفي بعقبه
الطلب مناوأة بعد ما شقنه عليه الخط وأطعمته الخبز بالخردل
فإن كان الشقاء قد استهواه والحين قد استغواه فالعين منظره والعين
ناظره والعلم حاضر وهي بنا على مشعار ولا بالرصاد **فصل**
مضرته التي هي كفيفة الجناح لا كغبة الحاج ومشعر الكرام لا مشعر الحرام ومن
الضيف لا منى الخيف ومن قبلة الصلاة لا قبلة الصلوات ٥٥٥٥٥

Copyright © King Saud University